صفات عباد الرحمن

١٢ ــ سؤال الله صلاح الأزواج والذّريّة والإمامة في الخير

● **الخطبة الأولى:**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا في رحاب القرآن، نعيش في صحبة عباد الرحمن، هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى فذكرهم في كتابه، وعددّ أوصافهم، وبيّن أحوالهم في نهارهم وليلهم، مع أنفسهم ومع ربهم ومع النّاس، مع النّاحية الإيجابية، ومع النّاحية السلبيّة، مع الأوامر والنّواهي، فكانت لهم تلك الأوصاف الطيّبة، التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان.

وبقي من أوصاف عباد الرحمن وصف واحد، هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

ما معنى هذا الوصف؟.

إنّهم يدعون الله تبارك وتعالى، ويتضرّعون إليه، ويبتهلون إلى وجهه الكريم، يسألونه أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم، وتسرّ به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، وأن يجعلهم أئمّة وقدوة للمتقين.

الدعاء يدلّ على وجهة الإنسان، من كانت وجهته الدنيا انحصر دعاؤه وطلبه في الدنيا، ومن كانت وجهته الآخرة فهمّه في الآخرة.

ذكر الله لنا مواقف بعض الناس في موسم الحج، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ [ليس لهم في الآخرة في حظ ولا نصيب] وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾، الأولون مذمومون، وهؤلاء ممدوحون، محمودون، لأنهم جمعوا بين الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

ومن أراد أن يعرف طموحات المؤمنين وآمالهم، ومتعلّقات قلوبهم، وإلى أين تتجه أمانيهم، فليتأمل أدعيتهم في القرآن نجد هذه الأدعية تمثّل ما يطمحون إليه.. ما يحرصون عليه.. ما يضعونه نصب أعينهم.

فنجد الراسخين في العلم ـ كما ذكرهم الله في سورة آل عمران يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

نجد أولى الألباب ـ في خواتيم سورة آل عمران ـ يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤].

نجد الفتية المؤمنين من أهل الكهف يقولون ـ حينما أووا إلى كهفهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

نجد إبراهيم الخليل يتجه إلى ربه ويقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠ ـ ٤١].

هكذا نجد آمال المؤمنين في أدعيتهم.

الإنسان يدعو بما هو مشغول به، بما يهمّه أمره، ولذلك لو تأمّلنا أدعية النبي ﷺ، واستعاذاته ـ ممّا استعاذ الله تعالى منه ـ نعرف فيم يفكّر، وإلام كان

يطمح، وعلام كان يحرص.

لقد كان من دُعائه ﷺ: «اللهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير، واجعل الموت راحة لي من كلّ شر»[1].

كان يدعو بأدعية جامعة، وكان يستعيذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، كان يستعيذ بالله من جهد البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، كان يستعيذ بالله من الهمّ والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال.

فمن هذا وذاك نعرف: كيف يفكر المسلم؟ وفيم يطمح؟ وإلام يقصد؟.

وهذا هو شأن دعاء عباد الرحمن هنا، فقد عرفنا منه: فيم يفكّرون؟ وإلام يرنون؟ وبماذا يدعون؟.

لقد سجّل القرآن من أوصافهم قبل ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥] فدلّ هذا الدعاء على اهتمامهم بأمر آخرتهم ونجاتهم من عذاب الله.

وفي هذا الدعاء اهتمّوا بأمر حياتهم، ولكنّهم لم يهتمّوا بشهواتهم أو متعهم في هذه الدنيا، إنّما اهتموا بأمر أعظم وأغلى وأبقى.

إنّ أهم ما دعوا الله سبحانه وتعالى به، وما حرص القرآن أن يسجّله في أوصافهم، أنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أنهم ليسوا مشغولين بأنفسهم وحدها، إنهم حريصون على أن يمتدّ الخير والهدى فيمن حولهم، وأقرب الناس إليهم: أزواجهم وذريّاتهم. فهم «... يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرة أعين...».

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (فيض القدير: ٢/ ١٣٧ برقم ١٥١٤).

يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم: من نسائهم، ومن ذرياتهم: من أبنائهم وبناتهم وأحفادهم، ما تقرّ به أعينهم، وإنّما تقرّ أعينهم بهم إذا وُفّقوا إلى طاعة الله وابتعدوا عن معصية الله، ساروا في طريق الخير.

إنّما تقرّ عين الإنسان المؤمن بامرأة صالحة تسرّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب، وتعينه على طاعة الله، تحرّضه على الإيمان بالله.. على تقوى الله، تحذرّه من المعصية، ولا تقول له: ألست كفلان وفلان الذين جمعوا الألوف والملايين؟ ما أخيبك من رجل! تعيّره بالفقر فيركب مركب السوء فيهلك والعياذ بالله.

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها ـ إذا خرج إلى الكسب يضرب في الأرض ويبتغي من فضل الله ـ يا أبا فلان، إيّاك وكسب الحرام، فإنّا نصبر على الجوع والطوى، ولا نصبر على حرّ النّار وغضب الجبار.

هذه الكلمة من امرأة صالحة تجعل الرجل يتوقف مائة مرة ومرة حينما تراوده نفسه الأمّارة بالسوء، أن يخوض في الحرام، ويرتكب الموبقات، ويقبل الرشوة، أو يأكل أموال الناس بالباطل، أو يحتكر أقوات الناس، أو يُغلي على الناس أسعارهم، إلى آخر ما يفعله الناس ليكسبوا من أيّ طريق.

ما أحوج المؤمن إلى امرأة تقول له: قف عند حدّ الله.. تحرّ الحلال.. اجتنب الحرام.. بل اتق الشبهات: «.. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه..»[1] «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[2].

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، وهو من أحاديث الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٠٦ برقم ٩٦٦).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد وصحّح شاكر إسناده، ورواه في موضع آخر وقال الذهبي: سنده قوي، وهو من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، ورواه الطبراني بنحوه من حديث واثلة بن الأسقع، وهذا الحديث هو الحادي عشر من الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ٩٧١، ١٧٧٣).

المرأة التي تقرّ بها أعين عباد الرحمن هي المرأة الصالحة، التي قال عنها ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[1]، ليس مجرّد المرأة الجميلة، أو المرأة الغنيّة، أو المرأة الحسيبة النسيبة، قد يكون هذا ممّا يتزوّج من أجله الناس، ولكن أهمّ من ذلك كلّه: المرأة المتدينة، التي تخاف الله، وتريد لزوجها أن يعيش في دائرة الحلال. ولأولادها أن يتربّوا في عيشة من حلال.

هذه هي المرأة الصالحة، إنها كنز عظيم يحرص النّاس عليه.

جاء في الحديث: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[2] ثمّ تلا: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فهي عابدة لله قانتة ترعى حق الله، وهي تحفظ غيب زوجها: تحفظه في نفسه، وتحفظه في عرضه، وتحفظه في أسراره، وتحفظه في ماله، وتحفظه في ولده، كما جاء في الحديث: «خير نساء ركبن الإبل [أي من نساء العرب] صالح نساء قريش: أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[3] أي تحرص على ماله، ومن حرصها عليه ألاّ يكسب هذا المال إلاّ من حلال، ولا ينمّى إلاّ بطريق حلال.

---

(١) رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه بلفظ قريب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٥٠، الحديث ١٠٩٧).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن، الجامع الصغير: ٢/ ١٤٢ قال المناوي: وليس كما قال فقد ضعّفه المنذري بعليّ بن زيد، وقال ابن حجر في فتاويه: سنده ضعيف لكن له شاهد يدل على إنّ له أصلاً (فيض القدير: ٥/ ٤١٩).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال المناوي في الفيض: وسببه أنّ النبي ﷺ خطب أم هانىء فاتذرت بكبر سنّها وأنّها أمّ عيال فرفقت بالنبي ﷺ أن لا يتأذى بمسنّة ولا بمخالطة أولادها فذكره (فيض القدير: ٣/ ٤٩٢ برقم ٤٠٩٠).

هذه الزوجة هي قرّة العين لزوجها، وهي عنصر أساسي من عناصر السعادة في الحياة، كما قال ﷺ: «من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»[1]. وعنه ﷺ: «أربع من أعطيهنّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه حُوباً في نفسها وماله»[2].

هذا من خير الدنيا والآخرة، هذا خير ما يكنز الإنسان: المرأة التي تعينه على دينه وتكون عوناً معه على الشيطان، ولا تكون مع الشيطان عليه فيصبح معه شيطانان: شيطان من داخل نفسه، وشيطان من داخل بيته.

كانت المرأة من نساء السّلف الصالح تحرض زوجها على الجهاد.. على البذل، ليخرج في سبيل الله، ليساهم في بناء الحضارة الإسلامية، وإقامة دولة الإسلام، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ومقاومة الطواغيت الذين يتربصون السوء بالأمّة الإسلاميّة.

كانت تحرّضه على الجهاد، فإذا جاء المثبّطون يقولون لها: كيف تركك هذا الرجل؟ ومن أين تأكلين؟ وكيف تُرزقين الله فتقول لهم ـ في إيمان الواثقة المؤمنة ـ: إنّ أبا فلان ـ تعني زوجها ـ منذ تزوّجته عرفته أكّالاً وما عرفته رزّاقاً، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرّزاق!.

---

(١) جزء من حديث سعد بن أبي وقاص، قال المنذري: رواه أحمد بإسناد صحيح، والطبراني والبزّار، والحاكم وصحّحه، وابن حبان، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. انظر: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٥٠ برقم ١٠٩٩).

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناد أحدهما جيّد، وقال الهيثمي: رجال الأوسط رجال الصحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٥٠ برقم ١٠٩٨) والحوب هو الإثم.

هذه هي المرأة التي تكون قرّة عين، أمّا المرأة الأخرى فهي من فواقر الدهر، كما جاء في الحديث: «ثلاثة من الفواقر [أي من المصائب التي تكسر فقار الظهر]: إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، وجار سَوْء إن رأى خيراً دفنه وإن رأى شراً أذاعه [الخير يُغَطّي عليه والشرّ يذيعه في كلّ مكان كأنّه ميكرفون، ولا يصبر على جاره ولا يراعي حقّه]، وامرأة إن حَصَرْتَ آذَتْكَ، وإن غِبْتَ عنها خَانَتْكَ»[1]. والعياذ بالله.

وكما جاء في الحديث الآخر: «المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»[2].

فهذه مصادر النكد في حياة الناس، في الداخل والخارج.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ومن أراد قرّة العين فعليه ـ من أوّل الأمر ـ أن يختار ذات الدين، التي تقرّ عينه، وتشرح صدره وتعينه في أمر دينه، كما جاء في الحديث الصحيح: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[3].

---

(١) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال، قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله وثقوا (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٩٠ ـ ٦٩١ برقم ١٥٢٩).

(٢) هو جزء من حديث سعد بن أبي وقّاص السابق، انظر تخريجه ص: ١٦٩.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنّسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقوله: «تربت يداك»: كلمة معناها الحث والتحريض، وقيل: هي هنا دعاء له بكثرة المال، أي: اظفر بذات الدين، ولا تلتفت إلى المال، أكثر الله مالك (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣، الحديث ١١٠٦).

أهمّ هذه الأربع التي يحرص النّاس عليها: ذات الدين «فاظفر بذات الدين» لتكون عوناً لك، لتكون معك في معركة الحياة ولا تدعك أبداً.

﴿.. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ..﴾ [الفرقان: ٧٤]:

وكما يدعو الرجال بهذا، تدعو النّساء أيضاً. تدعو المرأة أن يهب الله لها زوجاً صالحاً، يأمرها بإقامة الصلاة والزكاة ـ كما كان يفعل إسماعيل عليه السلام ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥] ـ يدعوها إلى الخير، ويحذّرها من الشرّ، وليس ككثير من أزواج هذه الأيّام، الذين لا يهمّهم صلاة نسائهم ولا صيامهنّ، ولا يسألون: أقمن حدود الله أم ضيّعنها؟ بل هناك من الأزواج من ضاع في طريق الشيطان، ويريد أن يضيع أهله معه.

ما أكثر ما تأتيني الرسائل، وما أكثر ما تأتيني المكالمات. تشكون من صنف من النّاس... من رجل يحرّض زوجته على المعصية، يأمرها أن تقدّم له الطعام في نهار رمضان، بل تقدّم له الخمر في نهار رمضان.

ما أكثر الأزواج الذين تشكو منهم زوجاتهم، يشكين من أفعالهم... من تركهم الصلوات، واتباعهم الشهوات، وارتكابهم الموبقات.

فممّا تدعو به أمّةُ الرحمن ـ أيضاً: أن يهب الله لها زوجاً يقرّ عينها، يعينها على الطاعة. فإنّ من أعظم الآفات: أن تُبتلى المرأة المؤمنة بزوج لا يخشى الله، لا ينحني ظهره لله راكعاً. لا يقيم فرائض الله، ولا يعظّم شعائر الله.

ما أكثر ما نرى هذا في حياتنا!.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]:

يدعون الله بصلاح الأزواج، وصلاح الذرّيّة.

إذا كان الإنسان يريد الخير، فأقرب من يرجو له الخير: زوجته، وذرّيته: أبناؤه.. بناته.. أحفاده، يرجو لهم الهداية والخير.

سئل الحسن عن (قرّة الأعين) في هذه الآية: أهي في الدنيا أم في الآخرة؟ فقال: لا والله، بل في الدنيا، وقال عكرمة في تفسيره قرة الأعين: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله.

إنّ المؤمن لا تقرّ عينه بمجرّد أن يكبر أولاده، ولا بمجرّد أن يكسبوا الأموال.. أن يصبحوا من الأثرياء.. أن يكون في أرصدتهم الملايين، ثمّ يكون مصيرهم إلى النار وبئس القرار.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1] [التحريم: ٦]، على كلّ مؤمن أن يقي أهله النار كما يقي نفسه.

قوا زوجاتكم، قوا أبناءكم وبناتكم، احموهم من النار، أبعدوهم عن طريق النار.

أتطمئن يوماً أو يثلج صدرك، إذا رأيت ولدك وفَلْذَة كبدك في النار؟.

أصبح من أصحاب الملايين أو البلايين، أو من الكبراء والسلاطين: ما قيمة هذا إذا انتهى ماله إلى جهنّم والعياذ بالله؟.

«كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته، الإمام راع ومسؤول عن رعيّته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته، وكلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته»[2].

الكل راع، عليه أن يرعى أمانة الله فيما استرعاه، و«إنّ الله سائل كلّ راع عمّا استرعاه، حفظ أم ضيّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[3].

---

(١) وتتمّتها: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٥٣، الحديث ١١٠٨).

(٣) رواه النسائي، وابن حبان، عن أنس رضي الله عنه، قال الأستاذ القرضاوي: وعزاه في الجامع الصغير إلى النسائي أيضاً ويبدو أنه في «الكبرى» إذا لم أجده في مظانه في

وأقرب ما يُسأل الإنسان عنه: أهله... أولاده... زوجته... ابنه.. ابنته. هؤلاء ماذا صنعت معهم؟ هل وقيتهم النار؟ هل علمتهم الخير؟ هل دعوتهم إليه؟ هل حذّرتهم من الشر، وبصرّتهم بعواقبه وآفاته؟

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

﴿.. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ..﴾:

ومّما يجعلهم قرّة عين: أن يكونوا بررة، يعرفون حق آبائهم وأمّهاتهم، كما يعرفون حق الله تبارك وتعالى. فإنّ من مكدّرات الحياة أن يجد الإنسان ابناً عاقاً، يتعب في تربيته، ويكدح في السعي عليه، حتى يصبح شاباً قوياً مفتول الذراعين، فإذا هو بعد ذلك يتنكّر لأهله.. يتنكر لأبيه وأمّه، وقد يتطاول عليهما بالقول أو الفعل، مع أن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

طالما شكا النّاس قديماً وحديثاً من عقوق الأولاد الذين لا يعترفون بالجميل لأهله، وكثيراً ما يفعل الولد هذا طاعة امرأته، إلا طاعة لشيطانه، أو طاعة لهواه، وهذا من أسباب البلاء، كما جاء في حديث الترمذي: «إذا فعلت أمّتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء ـ وذكر منها: وأطاع الرجل زوجته، وعقّ أمّه، وبرّ صديقه، وجفا أباه»[1].

= «الصغرى» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٦٢ برقم ١١٤١)، وقال المناوي: ورواه عن أنس أيضاً البيهقي في الشعب وفيه معاذ بن هشام حديثه في الستة لكن أورده الذهبي في الضعفاء وقال: قال ابن معين: صدوقاً وليس بحجة، وقال غيره: له غرائب وتفرّدات (فيض القدير: ٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ برقم ١٧٤٥).

(١) رواه الترمذي بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه. انظره كاملاً في ص: ١٠٠.

ليس هذا من شأن الإنسان المؤمن.

شكا أحد الشعراء قديماً ابناً عاقاً له فقال:

غذوتك مولوداً وعُلتك يافعاً ... تعلّ بما أُسدي إليك وتنهل
إذا ليلةٌ نابتك بالشجو لم أبت ... لشكواك إلاّ ساهراً أتململ
كأنّي أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعيني تَهمِل
فلّما بلغت السّنّ والغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤمّل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنّك أنت المنعمُ المتفضلُ!

هذا لا يكون قرّة عين أبداً، إنّما يكون نكداً وغصّة في حلق أبيه.

نكران الجميل شيء يؤذي النفس، ويجرح القلب، ولا سيما إذا جاء من أقرب النّاس إليك، إذا طُعنت من أحبّ النّاس إليك، وأعزّهم عليك: من ابنك، من بنتك، من زوجتك، من أقاربك.

ولهذا سأل عباد الرحمن ربّهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذرّياتهم قرّة أعين، ويؤدّون حق الله، ويؤدّون حق الأبوين: ﴿.. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

هم ـ أيضاً ـ أرادوا أن يمتد الخير في الناس، وأن يكون لهم مكان في عالم الخير والهدى، وأن يكونوا أئمّة للمتقين، وهذا طموح لا غبار عليه، لأنّه ليس طموحاً يتعلّق بالدنيا، ولا يتعلّق بالدرهم والدينار، ولا بالمناصب، وإنّما يريدون أن يكونوا قدوة لأهل الخير، يقتدي بهم النّاس، ولا حرج من أن يسأل المؤمن ربه أن يكون إماماً في الخير.

والإمامة نوعان: إمامة في الخير، وإمامة في الشرّ.

والأئمة نوعان: أئمّة يدعون إلى الجنّة، وأئمّة يدعون إلى النّار والعياذ بالله.

وصف الله أئمّة الخير بقوله في بعض رسله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال في جماعة آخرين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. فمن أراد الإمامة فعليه أمران: الصبر، واليقين، الصبر في مقاومة الشهوات، واليقين في مقاومة الشبهات، وبذلك يستقيم فكره، ويستقيم سلوكه.

هذا شأن أئمة الخير.

أمّا أئمة الشر فمثل: فرعون وهامان وقارون، ومن على شاكلتهم، الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: ولكن أيّ إمامة هذه؟ إنها إمامة في الشرّ.. في الطغيان.

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: ما أكثر الأئمّة الذين يدعون إلى النار اليوم، يدعون بأقلامهم، يدعون بألسنتهم، يدعون بأفكارهم، يدعون بكتبهم.. بصحفهم.. بأقلامهم ومسلسلاتهم.. أئمّة يدعون إلى النار من أجابهم إلى دعوتهم قذفوه فيها، كما جاء في حديث حذيفة ﷺ: «.. دعاة على أبواب جهنّم، من أجابهم إليها، قذفوه فيها»[1].

احرص ـ أخي المسلم ـ على أن تكون من عباد الرحمن، الذين يتطلّعون إلى هذه المقامات العُلى: ﴿.. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

---

(١) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...» الحديث، رواه البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٥/ ١٤ ـ ١٥ برقم ٤٢٢٢).

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

اللهم اجعلنا من هؤلاء، اللهم اجعل لنا حظّاً من هذه الإمامة، يا ربّ العالمين.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد:

أحبّ أن ألفت أنظار الإخوة المصلّين إلى أنّ الظهر قد بكّر الآن، فعلينا أن نبدأ مبكّرين، ولا يتخلّف المصلّي حتى يُؤذّن الظهر ويصعد الخطيب على المنبر، فإنّه بهذا يُحرم أجراً كثيراً.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأوّل فالأوّل، ومثل المُهَجِّر كمثل الذي يُهدي بَدَنَةً، ثمّ كالذي يُهدي بقرة، ثمّ كبشاً، ثم دجاجة، ثمّ بيضة، فإذا خرج الإمام طَوَوْا صحفهم يستمعون الذكر»[1].

معنى هذا: أنّ (سجّل الدوام) قد طُوي، ومن أتي بعد ذلك يُعتبر كأنّه أتى متأخّراً عن الموعد، فيوجه إليه بعض اللّوم، أو على الأقل يحرم حين ذلك من أجر التكبير.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه، و«المُهَجِّر»: هو المُبَكِّر الآتي في أول ساعة، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ برقم ٣٧٤).

فأرجو من الإخوة أن يراعوا هذا إن شاء الله.

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، إنك سميعٌ قريبٌ مجيب الدعوات.

اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

عباد الله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وصلوا على نبيكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وأقم الصلاة.

* * *